المحاضرة التاسعة :

الأدب القومي

أ.م.د. علي مجيد البديري
جامعة البصرة / كلية الآداب

يُقصد بالأدب القومي الأدب المرتبط بأمة ما، لها استقلالها اللغوي، وما يترتب عن هذا الاستقلال من خصائص ومزايا ثقافية. وتعدُّ الحدود اللغوية في هذا المفهوم، الأساس الذي تقوم عليه الدراسة المقارنة، فلا يمكن بدون معرفة هذه الحدود وتمييزها تشخيصُ طرفي المقارنة، والشروع في الدراسة.

على أن لهذا المفهوم حالاتٍ استثنائية، ولكنها تبدو شائكة، تستدعي إعادة النظر في اعتماد الحد اللغوي معياراً في التصنيف؛ فهناك نمطٌ من الكتَّاب يجيدون إلى جانب لغتهم القومية لغةً أجنبية أو أكثر، ويكتبون نصوصهم الابداعية فيها، مثل الجزائري الطاهر بن جلُّون واللبناني جورج شحادة اللذين يكتبان باللغة الفرنسية إلى جانب كتابتهما بالعربية، وكتابٌ آخرون يقيمون في بلدان أجنبية ويحملون جنسية هذا البلد، وينتمون إليه سياسياً، ويكتبون بلغتهم الأصلية. وهناك آداب تفصل بينها حدود وأبعاد شاسعة، ولكنها مكتوبة بلغة واحدة، مثل أدب الولايات الأمريكية المتحدة وبريطانيا وكثير من البلدان التي تتكلم الانجليزية. وكذلك هناك أقليات لغوية في بلد له لغة رسمية واحدة كما هو الحال مع تركيا و إيران وسوريا، وتبدو المسألة أكثر تعقداً مع بلدان عرفت في فترة من تاريخها أدباً مكتوباً بلغة غير لغتها الأصلية مثل الأدب العربي في إسبانيا ، والأدب القبطي في مصر[١] .

لم تكن هذه الظواهر بعيدة عن أذهان منظري الأدب المقارن، وهم يضعون منهج المقارنة ويحددون مفاهيمه الأساسية، فيرى فان تيغم أن العامل اللغوي يبقى مع هذه الاستثناءات معياراً معتمداً فالأدب القومي يتحقق ((حيثما تكن المساحة اللغوية منطبقة كل الانطباق أو بعضه على المساحة السياسية، كما هو الشأن بين فرنسا وانجلترا أو بين فرنسا وإسبانيا. لكن هذا الانطباق غير متوفر في غالب الأحيان ، وهناك حالات كثيرة يصعب أن نجد لها حلاً عاماً . فكثيراً ما تكون اللغة السائدة في بلد من البلدان ممتدة إلى ما وراء حدوده))[٢]

---

(١) ينظر: الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه: د. الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ـ مصر، ط١، ١٩٨٧: ٢٣٨ وما بعدها .

(٢) الأدب المقارن : فان تيغم : ٦٣

لا شك في أهمية دور اللغة في تمييز الآداب، فالنصوص الإبداعية تقوم في الدرجة الأساس على بنية لغوية خاصة، غير أن من مجانبة الصواب القول بانفرادها في تشكيل هوية كل أدب، فللمكان أو البيئة تأثير لا ينكر في هذه الخصوصية، ولعل من المفيد الاستعانة بمقولات المنهج التاريخي في إعادة النظر بمفهوم الأدب القومي، حيث يرى هذا المنهج أن الأدب يمتلك ملامحه الفارقة نتيجة تكوّنه في حاضنته الخاصة، فهو يُنتج في سياقٍ معرفيٍّ وتاريخيٍّ خاص، ضمن إطار منظومةٍ من القوانين التي تؤثر فيه، ومنها المكان أو البيئة، فهو يؤثر في تكوين الأديب وثقافته وتوجهاته تأثيراً بالغاً[٣]. ويمكن في ضوء ذلك، ضم عامل البيئة إلى جانب عامل اللغة في التعامل مع الآداب التي تشترك في استعمال لغة واحدة، وتختلف في بيئتها وبلدها، أما الآداب التي تتقاسم أرضاً واحدةً في العيش والوجود، ولكنها تختلف فيما بينها في اللغة، فبالإمكان اعتماد معيار اللغة في التمييز. ولا ندَّعي حلاً نهائياً بهذا الخيار، ولكنه يسهم في منح المعايير المعتمدة في تحديد مفهوم الأدب القومي شيئاً من المرونة، يمكن بواسطتها استيعاب الحالات الاستثنائية التي تعيشها بعض الآداب، مما يؤهلها لأن تكون موضع دراسة مقارنة .

---

(٣) لمزيد من التفصيل حول هذا المنهج ، ينظر على سبيل المثال :

ـ مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق : ديفيد ديتش، تر: محمد يوسف نجم و إحسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٧ .

ـ النقد الأدبي الحديث ومدارسه الحديثة : ستانلي هايمن ، تر: إحسان عباس ومحمد يوسف نجم ، دار الثقافة ـ بيروت ،ج١، ١٩٦٧ .